د. أنيس صالح محمود المقصي

الغربة والحنين

في

الشعر الفلسطيني بعد المأساة

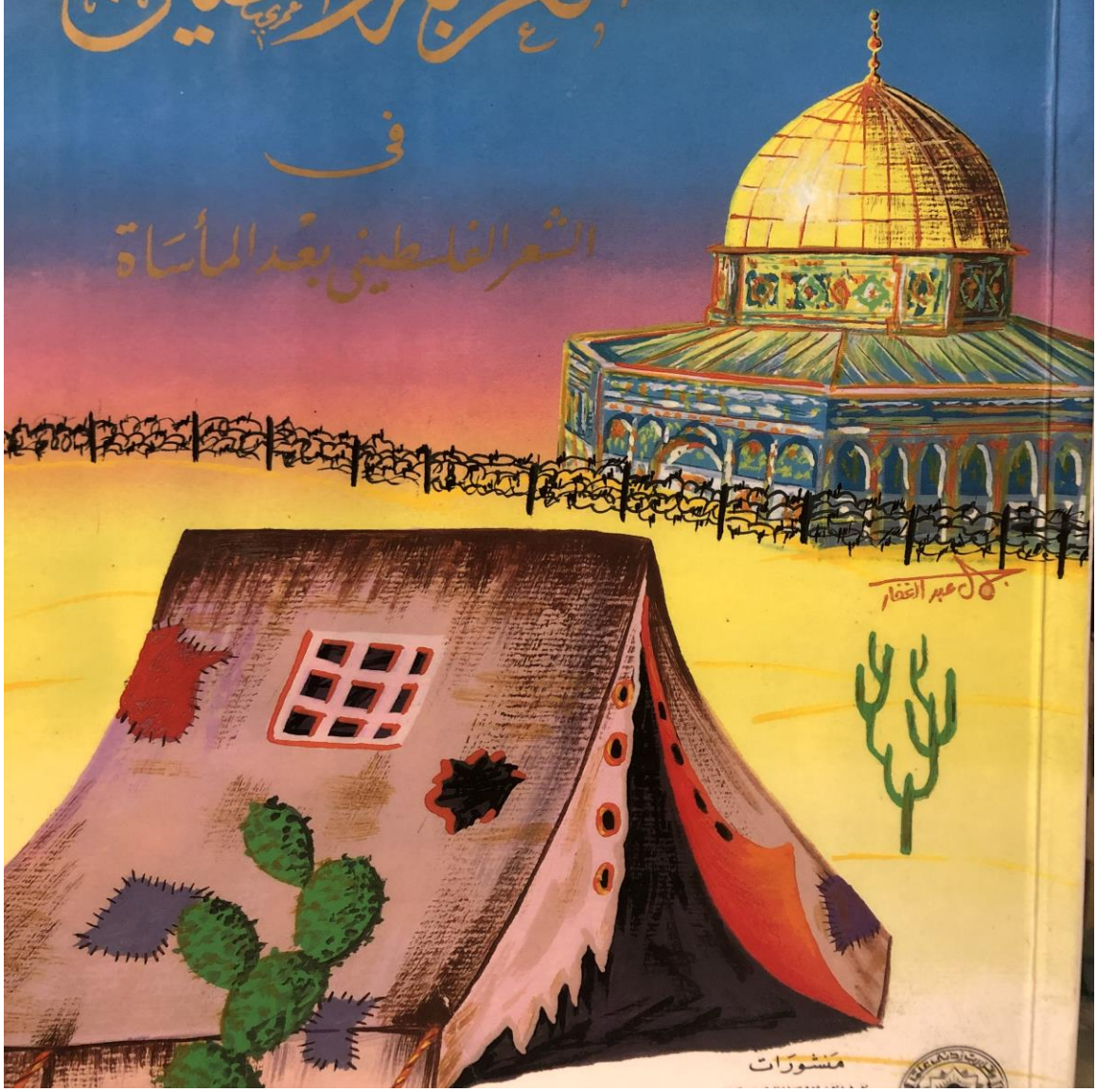

منشورات

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1995

رقم الإيداع : 1979 / 95

منشورات

جامعة قاريونس

بنغازي

الفصل الأول

الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني

1 - حسرة ولوعة على الوطن المغتصب:

منذ فجر التاريخ وفلسطين بلد عربى؛ فقد سكنها الكنعانيون والعماليق وغيرهم من العرب القدماء، وهى متصلة جغرافياً بجزيرة العرب التى رفدتها بالهجرات البشرية المتعاقبة، وقد تعرضت إلى غزوات عديدة كانت إحداها غزوة «بنى إسرائيل» بعد فرارهم من مصر بقيادة «موسى» عليه السلام، ولكن تواجدهم شغل جزءاً من أرض فلسطين فى الداخل إلى أن تعرضوا للاجتياح فى القرن السادس قبل الميلاد حين غزا «بختنصر» بلاد الشام، وقد رحل معظم بنى إسرائيل إلى «بابل» فى العراق وإلى جهات أخرى.

بعد ذلك جاء الغزو الرومانى وهم عدد قليل «أقلية» بالنسبة للسكان الأصليين «الكنعانيين» - وفلسطين فى كل الكتب السماوية تسمى أرض كنعان - ، فإذا ما جاء الفتح العربى أكد ذلك الصبغة العربية لفلسطين وبقيت منذ ذلك الحين حتى القرن العشرين بلداً عربياً إسلامياً، وإذا كان الصليبيون قد حاولوا السيطرة عليها والبقاء فيها إلا أن ذلك لم يدم لهم، وانحسر وجودهم وتلاشى بعد حروب طويلة ومعارك طاحنة لا يتسع المقام للحديث عنها، ومازال الغرب يعانى من عقدة هزيمته فيها.

ويتحدث التاريخ أن بعض اليهود الذين أسروا على يد بختنصر قد عادوا ثانية إلى فلسطين، ولكنهم عادوا ثانية فشردوا على يد الرومان فى القرن الأول الميلادى، بعد

أن أصبحت المسيحية دين الامبراطورية، ولا خلاف فى أن بعض الجماعات قد اعتنقت اليهودية مثل مملكة الخزر فى جنوب روسيا - وقد ساعد ذلك على انتشار اليهودية فى روسيا وشرق أوروبا - لكن اليهود ظلوا يعيشون فى مجتمع مغلق «غيتو» عليهم وحدهم، ورفضوا الاندماج فى الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها . ولم يكتفوا بهذا بل عكفوا على جمع المال والتحكم فى مصادره بكل السبل، وعمدوا إلى التآمر والاستغلال البشع لكل الأجناس والديانات الأخرى، انطلاقاً من اعتقادهم المنحرف الذى يصور لهم أنفسهم خيراً من الآخرين - شعب الله المختار - وأن غيرهم من الناس «الأمميين» لا يستحقون منهم إلا الاحتقار والاستغلال بل إن مالهم ودماءهم حلال لليهود!

وظلت أحوال اليهود تتراوح بين مد وجزر حتى أواخر القرن التاسع عشر حين اجتمع نفر من زعمائهم فى «بال» بسويسرا 1887 بزعامة صحفى نمساوى يدعى «تيودور هرتزل» وقد انبثق عن هذا الاجتماع قيام أول مؤتمر صهيونى دعا إلى وحدة اليهود فى العالم وحثهم على إيجاد وطن قومى يلم شتاتهم، ويتسع لإقامة دولة خاصة بهم.

وقد طرحوا أمام مؤتمرهم ذاك أسماء بلدان عدة، إلا أن فلسطين حظيت باهتمامهم أكثر من غيرها لأسباب عديدة، أهمها الزعم أن ارتباطهم «العاطفى» سيقنع الكثير من اليهود بالتوجه إليها والإقامة فيها متى جاء الوقت المناسب.

غير أن فلسطين كانت - فى ذلك الوقت - جزءاً من ولاية الشام التابعة للدولة العثمانية، ولذا فقد انصرف اليهود للاتصال بالسلطان «عبد الحميد» عارضين عليه القيام بتسديد ديون الخزانة لقاء التنازل لهم عن فلسطين! ولكن السلطان رد على هذا العرض قائلاً: «فليحتفظ اليهود بملايينهم، فلو قدر لامبراطوريتى أن تتمزق فقد

يحصلون على فلسطين بلا مقابل، ولن يتم ذلك إلا إذا مزقت أوصالنا، ولن أوافق أن تمزق وأنا حى».[1]

وبعد هزيمة تركيا فى الحرب الكونية الأولى وحصولهم على وعد بلفور المشئوم، ووقوع فلسطين بين براثن الاستعمار البريطانى - استطاع اليهود أن يحققوا وجودهم فى ظل ظروف سياسية واقتصادية معقدة - تحدثنا عنها آنفاً - وقد خدمتهم هذه الظروف حتى نجحوا فى إقامة دولتهم المشئومة فى 15 مايو 1948، وقد نتج عن قيامها تشرد مئات الآلوف - أصبحوا عدة ملايين فى هذه الأيام - من العرب الفلسطينيين الذين خلفوا وراءهم قراهم ومدنهم وحقولهم وديارهم ومتاجرهم، مع ما لحق بهم من تقتيل وإيذاء واعتداء، وما أصابهم من تعب وخوف وجوع وعرى وعطش مما ضاقت بذكره المجلات والصحف والكتب وباقى وسائل الإعلام، ولا نبالغ حين نقول إن الشعب الفلسطينى قد تحمّل من المصائب والكوارث والمعاناة ما تضيق عنه الإحاطة ويقصر الوصف دونه، وقد حاول الشعراء والكتّاب والأدباء - العرب عامة والفلسطينيون خاصة - أن يعبروا عما أفرزته مأساة الشعب الفلسطينى فى أشعارهم وكتاباتهم، وإنا لنلمس من خلال ذلك عمق الجرح وفداحة الخطب وهول المأساة. لكن ما يعنينا فى هذا البحث هو شعر الغربة والحنين عند الشعراء الفلسطينيين فحسب. وقد فجرت المأساة ينابيع الشعر لتقطر حسرات وأسى لما كابده شعبنا العربى فى فلسطين ، وقد تتابع الشعراء منذ حدوثها وحتى يومنا هذا يصورون حنينهم الطاغى إلى الوطن الغالى، وتلذعهم اللوعة لفراقه.

وإذا كانت فلسطين - قبل الكارثة - تكاد تخلو من الشعراء النابهين، فإن المأساة أهاجت العواطف وشحذت القرائح؛ فالنكبات والحروب كانت - وماتزال - مبعث الشعر

---

(1) مصطفى الشهابى - القومية العربية والشعر المعاصر - جـ 1 - ص 72 - ط القاهرة 1959.

عند الأمم عامة، وهى عند العرب كذلك وهم الذين دارت أشعارهم على حروبهم فى الجاهلية يثيرونها فيما بينهم، فإذا جاء الإسلام دارت حروبهم مع الفرس والروم وقد لعب الشعر دوراً فعالاً فى الإثارة وشحذ الهمم، وفى العصر الحديث - ولاسيما بعد المأساة - نجد شعراء فلسطين قد أجادوا وأبدعوا وبرز منهم عديدون. فتقت المأساة شاعريتهم وشحذت قرائحهم.

وقد بدأ الشعر أول ما بدأ بعد الكارثة مفعماً بالحسرة واللوعة والبكاء ثم تطور إلى الشوق والحنين وإلى مراجعة النفس والتأمل، ثم تطور إلى حث الناس على التحدى والثورة والعمل على تحرير الأرض، وهو الآن يواكب الثورة ويدعمها ويشحذ همم الثائرين، ويؤبن الشهداء، ويعانق الوطن ولأنه يخاطب العاطفة ويناجى الشعور كان له أثر كبير فى نفوس أبناء الشعب من مختلف الطبقات والشرائح. ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال النماذج التى سنقدمها للعديد من شعراء فلسطين وشواعرها، فى قصيدة بعنوان «برتقالة» للشاعر «كمال ناصر» يقول فيها:(2)

وذقتها فارتعدتْ جبهتى ... كأنّ فى ثغرى دمَ الوريدْ
فضضتها فانشقَّ عن صدرِها ... جرحٌ على دربِ الأمانى وحيدْ
عرفته فذاك جرحُ الصبا ... وملعبى الدامى وعِرضى الفقيدْ
وسرتُ فى سمعى عويل الصدى ... يضجُّ فى صدرى بلحنٍ وئيدْ
إنى تحدّيتك فى نشوتى ... فاشربْ إن اسطعتَ وكلْ ما تريدْ

فالشاعر يرمز إلى وطنه بالبرتقالة وما أكثر وما أجمل البرتقال فى فلسطين! لكن «البرتقالة» فى هذه المرة هى نوع آخر؛ يذوقها فترتعد جبهته، وقد انشق عن

(2) كمال ناصر - جراح تغنى - ص 48 - ط بيروت - 1960.

والشاعر «رجا سمرين» وقد شاهد وعايش ماتركته النكبه من بصمات على حياته وحياة إخوانه أبناء الشعب الفلسطيني؛ فقد تركتهم يتجرعون كئوس الأسى مترعة، وشددتهم تحت كل كوكب، ونثرتهم فوق كل درب، وحرمتهم من أغلى ماعندهم وهو الوطن الحبيب، فتعاقبت عليهم السنون عجافا، ومرت الأيام كالحة شوهاء لاتحمل إليهم إلا الهم وذرع اليأس فى النفوس، ولاخير فى أن تحمل لهم على لسان أدعياء العروبة والنضال خطبا وجعجعة فارغة، وهكذا لم تصف الحياة أبدا - ولن تصفو - لهؤلاء النازحين ماداموا بعيدين عن أوطانهم وديارهم، فماذا يقول شاعرنا فى قصيدته «فلسطين»؟[13]

يافلسطينُ يابنةَ الأمـــجـــادِ ... يـاعـــرينَ الآباءِ والأجـــدادِ
يامـحطَّ الآمـالِ يامـهـبطَ النورِ ... ومـــأوى الأبناءِ والأحـــفـــادِ
كيف تصفو الحياةُ للنازحِ الصبِّ ... ويهنا المنكوبُ بالإنشـــادِ؟
ورباكِ الخضراءُ أمست مراحاً ... لجـيـــوشِ الأنذالِ والأوغـــادِ
والسنينُ العجافُ تمضى تباعاً ... وبنوك الأبطالُ فى الأصـــفـــادِ
فى الكهوفِ السوداءِ فى المهمهِ ... الجدبِ ووسطِ الخيامِ فى كل وادِ
هم يذوقـــون كلَّ يومٍ صنوفـــاً ... من عـــذاب الأرواحِ والأجـــسـادِ

والشاعر: «حسن النجمى» يجرى حوارا متخيلا بين الفلسطينى النازح والشمس «التى يمر بها وطنه» وحيفا - مدينة الشاعر - تبحث عنه وتسأل الشمس: أين يعيش؛ وكيف يحيا؟ أيشتاق إلى الكرمل؟ إننى أعرفه جيدا حين كان طفلا شرس

(13) د رجا سمرين - الضائعون - عمان سنة 1960 ص 14.

ولابد أن يعود إليه طال الزمن أو قصر ومن ثم فلا بد أن يعبر هؤلاء النازحون وأن يتحملوا كل المشاق، وأن يضاعفوا الجهد، ويبذلوا كل مافى وسعهم من تضحيات حتى يحققوا العودة إلى الوطن الحبيب، وهى آتية بلا ريب، ومعنى ذلك أن الشاعر يسعى إلى زرع الأمل فى نفوس أبناء وطنهم كى يكونوا قادرين على مواجهة التحدى، وكى يصبح فى مقدورهم أن يصنعوا شيئاً من أجل مستقبلهم وحياتهم، فيقول:[15]

أخى يأيها السابحُ فى ... بحرٍ من الهمِّ
أخى فى البؤسِ والآلام ... يابنَ الخالِ والعمِّ
أخى لاتيأسْ اليومَ ... ولاتركنَ إلى الغمِّ
أخى لابدَّ من فجرٍ ... أخى لابدَّ من يومِ

* * *

أخى يأيها الضاربُ ... فى سهلٍ وفى قفرِ
أخى لم أنسىَ أوطانى ... برغمِ الجوعِ والفقرِ
وهل أنسى هوى خلٍّ ... هواه فى دمى يجرىِ
أخى صبراً، أخى صبراً ... أخى لابدَّ من فجرِ

- 2 -

بكاء المروءة والعزة :

إن مأساة فلسطين قد أحدثت شرخا رهيبا فى نفسية الإنسان العربى عامة، والفلسطينى خاصة؛ إذ أنها كانت أمرا شاذا عن المألوف وغير المتوقع، فأكثر الناس

---

(15) د.كامل السوافيرى - الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين - نهضة مصر بالفجالة - ص 473.

إغراقا فى التشاؤم لم يكن خياله ليتصور أن شعبا بأسره سينتزع من أرضه، ويقذف به بعيدا عنها، ليحل محله شراذم من جنسيات مختلفة وأعراق متباينة، ولايربط بينها إلا عقيدة عنصرية ترتكز على سوء النية وشراسة الطبع وكراهية الغير، والتعالى على البشر، ومن هنا أصيب الإنسان العادى بالصدمة بله الشاعر والفنان، وقد عملت هذه الصدمة على تفجير ينابيع الأسى والسخط فى نفوس العرب أجمعين، وعز على كل عربى مخلص لدينه وعروبته أن تصل الحال بنا إلى هذا الوضع فأخذ يتساءل: أين شجاعة العرب؟ أين كبرياؤهم القومى؟ أين تراثهم فى الفتوحات، فى المواجهة، فى النضال، فى كل الظروف؟ أين... أين.. وهل ذهبت كل تلك القيم والأمجاد والتاريخ أدراج الرياح؟ وهل عفى عليها الزمن؟

كل هذه التساؤلات كانت من الأسباب التى دفعت الشعراء إلى بكاء العزة والمروءة والعمل على نفخ روح الكرامة والإباء فى نفوس العرب أجمعين، إنه استنهاض الهمم، والتخلى عن اليأس والدموع والاستسلام للأحزان، إن الشعر سيبدأ دورا جديدا يلعب فيه دوراً إيجابيا، بعد أن كان سلبيا يكتفى بالوصف والتعبير عما يعانى النازحون من آلام وجوع وعرى وتشريد، وكأنى به وقد أفاق من الصدمة وأخذ يتلفت حوله ويتأمل موقفه وحاله من جميع الجوانب ليرى ماذا يمكنه أن يفعل، وكأنى به وقد اتخذ شعارا له هذين البيتين من الشعر:

لاتيأسوا أن تستردوا مجدَكم ... فلربَّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدَّتْ له الأفلاكُ من عليائها ... خيطَ الرجاءِ إلى العلا فتسلّقا

ويجدر بنا أن نقدم بعض النماذج للشعراء من أبناء فلسطين تصور الحنين الذى لايفتر إلى الوطن ممزوجا ببكاء المروءة والعزة ناعيا على أمة العرب؛ وخاصة

والله – جلّ جلاله – لم يفرض أن يكون هذا ملكا. وأن يكون ذلك سوقة، بل إننا لو تمعنا جيداً فيما حولنا، ودققنا النظر فى جوانب حياتنا لوجدنا أن ما ينعم به الأغنياء والموسرين، وعلى رأسهم الملوك والأمراء والزعماء لوجدناه ناتجاً عن كدّ وتعب ومعاناة الطبقات الفقيرة من عمال وفلاحين وحرفيين.

ولا ينسى شاعرنا أن يذكر قومه أن يهبوا من غفلتهم وأن يعملوا على التخلص مما يعيق استردادهم كرامتهم واستعادتهم وطنهم، فهول يقول:[23]

ألا أيها الضائعون العفاةْ ... أفيقوا أفيقوا كفاكم سُباتْ
أرى الأفق قد غُصّ بالثائرينْ ... لنيلِ الحقوقِ وسحقِ الطغاةْ
وأنتم تغطّون مثلَ القطيعْ ... يسيّر أنّى تريد الرعاةْ
أراكم رضيتم بعيش الكفافْ ... وأنتمْ صنعتمْ نعيمَ الحياةْ
أراكم تنامون فوق الترابْ ... وأنتم أقمتمْ قصورَ السراةْ
تواريكمُ باليات الثيابْ ... وأنتم نسجتم حريرَ البغاةْ
تعلّون ماءَ الشقاءِ المريرْ ... وأنتم عصرتم خمورَ السقاةْ
لقد ضلّلوكم فقالوا لكم ... بأن لكم ذاك بعدَ المماتْ
وأن الإلهَ مع الصابرينْ ... وأن الجنانَ لجمعِ العفاةْ
وأن القضاء قضى أن يكونْ ... فريق ذليلاً وآخر عاتْ

وله من قصيدة أخرى بعنوان «عودة» أبيات تحمل هذه المعانى التى تصور وطنه وقد شرّد أبناؤه، وأخذوا يعيشون فى الخيام أذلاء خانعين، وقد «ركنوا لظلم الغاشمين» وتركوا حقولهم وجناتهم يمرح فيها اليهود، وقد دفعه إلى ذلك سخطه، ولهفته على أن يتحرك شعبه لاسترداد حقوقه - وهذا السخط لم يكن موجهاً لأبناء

(23) د. رجا سمرين - ديوان الضائعون - عمان، 1960.

شعبه فحسب، بل إنه - فى معظمه - موجه إلى أبناء العروبة الذين يقفون من هذه المأساة موقف المتفرج، وكأن الأمر لا يعنيهم، وأنهم بعيدون عن الأخطار - حسب وهمهم - ولذا فهم لا يغضبون لما يجرى، لأنهم خائفون ترتعد فرائصهم أمام أتفه المخاطر دون خجل أو حياء، فكيف يمكنهم أن يتصدوا للأخطار الكبيرة؟ فماذا يقول فى قصيدة «عودة»؟[24]:

قـــد صـــرتَ يا وطنى مـــلاذاً للشـــريدِ وللطريدْ
وبنوكَ فى جـوفِ الخـيـامِ بلا شـعـورٍ كـالعـبـيـدْ
ركنوا لظلمِ الغـاشـمـين وقـد رضـوا ذلّ القـيـودْ
وجنانُك الفـيـحـاءُ قـد أمـست مـراحـاً لليـهـودْ

* * *

وطنى الجـريح لقـد رجـعتُ إليك يحـدونى الأملْ
فـــرأيتُ فـــيك مـــآســـيـــاً تدمى لمرآها المُقَلْ
وبنو العـروبةِ خـائفـون، وليس يعـروهم خـجلْ
لا يغـضـبـون لما أصـابَ رباك من خطبٍ جللْ

والشاعر: «مصطفى زيد الكيلانى» ينعى على العرب ضعفهم أمام العدو، وخوفهم من قتاله ومواجهته، ويعجب كيف يرضى العرب بالخنوع والهوان، فقد مرغوا كرامتهم فى الوحل، ولذلك «فيعرب» براء من أبوته لهم، و«محمد» - عليه الصلاة والسلام - برئ منهم؛ فقد «كان رابط الجأش أغلبا»، ولا يعقل أن يكون هؤلاء «العرب» المذعورون المتخاذلون من نسل الأشاوس الأباة الذين دوخوا العالم، وفتحوا البلاد سشرقاً ومغرباً، يقول فى قصيدة له بعنوان: «من وحى النكبة»:[25]

(24) المصدر السابق نفسه.
(25) مصطفى زيد الكيلانى - مجلة القلم الجديد - العدد الخامس - يناير، 1953، عمّان.

شعبه فحسب، بل إنه - فى معظمه - موجه إلى أبناء العروبة الذين يقفون من هذه المأساة موقف المتفرج، وكأن الأمر لا يعنيهم، وأنهم بعيدون عن الأخطار - حسب وهمهم - ولذا فهم لا يغضبون لما يجرى، لأنهم خائفون ترتعد فرائصهم أمام أتفه المخاطر دون خجل أو حياء، فكيف يمكنهم أن يتصدوا للأخطار الكبيرة؟ فماذا يقول فى قصيدة «عودة»؟[24]:

قـــد صـــرتَ يا وطنى مـــلاذاً للشـــريدِ وللطريدْ
وبنوكَ فى جـوفِ الخـيـامِ بلا شـعـورٍ كـالعـبـيـدْ
ركنوا لظلمِ الغـاشـمـين وقـد رضـوا ذلّ القـيـودْ
وجنانُك الفـيـحـاءُ قـد أمـست مـراحـاً لليـهـودْ

* * *

وطنى الجـريح لقـد رجـعتُ إليك يحـدونى الأملْ
فـــرأيتُ فـــيك مـــآســـيـــاً تدمى لمرآها المُقَلْ
وبنو العـروبةِ خـائفـون، وليس يعـروهم خـجلْ
لا يغـضـبـون لما أصـابَ رباك من خطبٍ جللْ

والشاعر: «مصطفى زيد الكيلانى» ينعى على العرب ضعفهم أمام العدو، وخوفهم من قتاله ومواجهته، ويعجب كيف يرضى العرب بالخنوع والهوان، فقد مرغوا كرامتهم فى الوحل، ولذلك «فيعرب» براء من أبوته لهم، و«محمد» - عليه الصلاة والسلام - برئ منهم؛ فقد «كان رابط الجأش أغلبا»، ولا يعقل أن يكون هؤلاء «العرب» المذعورون المتخاذلون من نسل الأشاوس الأباة الذين دوخوا العالم، وفتحوا البلاد سشرقاً ومغرباً، يقول فى قصيدة له بعنوان: «من وحى النكبة»:[25]

(24) المصدر السابق نفسه.
(25) مصطفى زيد الكيلانى - مجلة القلم الجديد - العدد الخامس - يناير، 1953، عمّان.

عفواً ... يا أهل البيتْ
جارحةٌ ... هذى الأمنيّة
لكنا ... لم يبق لدينا
منكم ... إلا قعقعةُ الصوتْ
ضيّعنا الأشياءَ الأصلية
ولقد ... أعيانا يا أحبائى
رشُّ السكرِ فوقَ الموتْ

3 ـ نعى العدالة فى المنظمات الدولية:

حين نشأت هيئة الأمم المتحدة سنة 1945 كانت معظم بلدان العالم تعيش مكبلة بقيود الاستعمار أو التبعية لاسيما أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتبنت إنشاء هذه المنظمة دول استعمارية فى معظمها وقد خرجت منتصرة فى الحرب الكونية الثانية ضد دول المحور: «ألمانيا ـ اليابان ـ إيطاليا» وكانت الولايات المتحدة ـ ولا تزال ـ زعيمة لتلك الدول الاستعمارية مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا والبرتغال وأسبانيا وبلجيكا، وأعضاء هذا «النادى» الاستعمارى هم الذين سرقوا استقلال الشعوب وثرواتها، وصادروا مستقبل أبنائها، وعملوا كل ما فى وسعهم لتبقى تلك الأقطار المستعمرة بقرةً حلوباً لهم؛ ينهبون اقتصادها بل يحطمونه؛ وذلك بشراء مواردها بثمن بخس، وتصدير منتجاتهم المصنعة إليها بأثمان عالية، وعلى الرغم من زوال الاستعمار العسكرى عن معظم بقاع العالم إلا أن الاستعمار الاقتصادى مازال فى أوج نشاطه بل إن الشعوب الفقيرة تزداد فقراً، والدول الغنية تزداد غنى لتتسع الهوة بينهما إلى

درجة مفزعة.

لكن الذى يهمنا هنا هو الدور السياسى الذى قامت به الدول الاستعمارية فى منطقتنا العربية، وما عانيناه منها فى وطننا العربى خلال القرن الماضى والقرن الحالى، ويتصدر الدول الاستعمارية ثلاث دول كبرى هى: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وسنرى أن هذه الدول الثلاث كيف ساندت قيام إسرائيل: سياسياً واقتصادياً وعسكرياً.

فإذا كانت بريطانيا هى التى أصدرت وعد بلفور المشئوم وعملت كل ما تستطيع - خلال احتلالها فلسطين - من أجل قيام إسرائيل، فإن أمريكا أمدت ومازالت تمد هذا الكيان الغريب، بكل وسائل القوة والحياة، وتقف بجواره فى المحافل الدولية مؤيدة كل تصرفاته، بل تحثه وتشجعه على العربدة والصفافة والعدوان، وتمد له الشرايين الذى تضخ له دماء الحياة أما فرنسا فكانت من أوائل الدول التى ساندت قيام إسرائيل وأمدتها بالسلاح منذ قيامها وبعد عقدين من نشأتها، وهى التى ساعدت فى تطوير الصناعة العسكرية الإسرائيلية لاسيما النووية والجوية منها.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأمم المتحدة منذ نشأتها سنة 1945 وعلى مدى عشرين عاماً - قبل استقلال الدول الأفريقية وبعض الدول الآسيوية - كانت خاضعة لهيمنة الدول الغربية، وعلى رأسها الدول الغربية الثلاث الكبرى، ومن هنا لم تستطع الأمم المتحدة أن تفعل شيئاً للشعب الفلسطينى الذى يقف الحق فى جانبه، وعلى الرغم من أن ميثاق المنظمة يتحدث عن حق الشعوب فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير، وعدم جواز احتلال أراضى الغير بالقوة، وغير ذلك من القيم والمثل التى لم تجد من يناصرها بحزم ويخرجها من دائرة النظرية والتجريد إلى دائرة التطبيق العملى، فقد أصدرت الأمم المتحدة ومجلس الأمن قرارات عديدة حول فلسطين وقضية شعبها،

وعلى الرغم من أن هذه القرارات لم تشتمل على مطالب وحقوق الشعب الفلسطيني كاملة، إلا أن إسرائيل رفضتها كلها وضربت بها عرض الحائط، يؤيدها فى ذلك ـ علانية أو سراً ـ معظم دول الغرب الاستعمارى، وإلا كيف يمكن لدولة قزمية كإسرائيل أن تتصدى لإرادة المجتمع الدولى، لو كان هذا المجتمع صادقاً فى قراراته غير متواطئ مع الباطل وأهله؟

وقد فطن كثير من العرب إلى هذه الحقيقة، وأشاروا إليها فى أحاديثهم وخطبهم وعملوا على كشفها ومهاجمة هذا التصرف الشائن وشجبه، وظهر ذلك جلياً فى قصائد الشعراء الذين أخذوا يحذرون أبناء أمتهم من هذا الحقد والتآمر اللذين يضمرهما الاستعمار والصهيونية لأمتنا العربية المجيدة ـ رغم الجراح ـ وما ذلك إلا لأنهما يخشيان بأسها إذا ما استعادت دورها، كما يحرصان على أن يستغلا مواردها وثرواتها وموقعها المتميز أطول فترة ممكنة، وكل تصرفاتهما تنطلق من مبدأ الحرص الشديد على منافعهما فى هذه المنطقة المنكوبة.

وقد حرض كثير من الكتاب والأدباء والشعراء على كشف هذه الحقائق كلها وتسليط الضوء عليها، لتعرف الجماهير ما يدور حولها وتستعد للمواجهة والتصدى والاعتماد على النفس؛ لأن الحقوق تؤخذ ولا تعطى.

ولذا فإن الأمم المتحدة غير قادرة ولا مؤهلة على تنفيذ قراراتها بالقوة لأنها لاتملكها، والقوة هى فى يد الدول الكبرى، ولابد من موافقة مجلس الأمن دون اعتراض «الفيتو»، وهذا هو المستحيل فى أمر قضيتنا؛ لأن أمريكا ـ كما يبدو لنا ـ لم تبتكر هذا «الفيتو» إلا لتستخدمه ضد أمانينا وخلق كل العراقيل فى طريق حريتنا وحقنا فى تقرير المصير والعودة إلى الوطن السليب.

وبمثل هذا الفيتو الذى تملكه أمريكا وبريطانيا وفرنسا وكذلك الاتحاد

السوفييتى والصين أصبحت كل قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن حبراً على ورق إذا ما اعترضها حق النقض «الفيتو» وتحولت - بذلك - الأمم المتحدة إلى دمية فى يد الدول الكبرى ولاسيما دول الغرب الثلاث - لموقفها المعادى لأمتنا العربية - . ولذا نرى شاعراً مثل «محمد العدنانى» يحذر أبناء أمته وخاصة زعماءها من الانقياد وراء وعود هذه الدول البراقة الخادعة، وهى التى قدمت لإسرائيل كل أسباب القوة والوجود، ولم تقدم للعرب إلا الأكاذيب ومعسول القول الخادع الذى طالما وقع العرب فى شراكه ولم يجدوه إلا سراباً، يقول فى قصيدة بعنوان «إلى زعماء العرب»:[31]

رمـــانا الإنكليـــزُ بنائبـــاتٍ ... يذرّى الطودَ أصـــغـــرها طحـــينا
وليس الأمـــر كـــانُ أقلّ شـــراً ... كـــلا الشـــعـــبـــين داءُ المسلمـــينا
قـد احـتـضنا بنى صـهـيـونَ حـبـاً ... كـــوالدةٍ قـــد احـــتـــضنت بنينا
وكل مـــصـــيـــبـــة فى الأرض تنمى ... إلى السكســـون تأبى أن تهـــونا
ولن تحـــتـــاجَ ثالثـــةُ الأثافى ... إلى وصفٍ يزيد العـــار فـــينا
فـفى الطغـيـانِ قـد باتت فـرنسـا ... كـــتـــاباً ضجّ منه القـــارئونا
فـــلا تلقـــوا الزّمـــام إلى أكفٍ ... ملـــوّثةٍ بما لا تجـــــــهلونا
وحـــســـبكمُ من الماضى عظاتٌ ... تحـــذّركم من المتـــأمـــرينا

ويتساءل الشاعر «على هاشم رشيد» - فى دهشة واستغراب - عن موقف الاستعماريين الأمريكيين والأوروبيين تجاه الوطن العربى، وهل يريدون له الخير كما يزعمون! وكيف يتأتى ذلك وقد وقفوا بكل ثقلهم ضد قضيتنا فى فلسطين، وقاموا بزرع جسم شاذ غريب خنجراً فى قلب هذا الوطن يؤرق حياة أبنائه ويفتت قواهم، ويقف حجر عثرة دون وحدتهم وتقدمهم، كما قتل الآلاف من أبنائه وشرّد الملايين من ديارهم

(31) محمد العدنانى - اللهيب - ص 134 - ط العصرية بصيدا لبنان - 1954.

المالُ؟ أم حفنةُ الأصواتِ يكسبها ... من حاربَ الحقَّ محمومَ الهوى جشعا؟
أم فضلةٌ من بقايا قوةٍ هرمت ... ولم تزلْ تتقنُ التكتيكَ والخِدعا؟
أم لفتةٌ - ويحهم - حمراءُ قد صهروا ... فيها الذى ضمَّروا والكبتَ والطمعا؟
ولست أدرى أنبقى أمةٌ قنعتْ ... بالقولِ سِلماً ، ويبقى الشرقُ منخدعا؟
قوموا إلى رُشدِكم يا عربُ واحتكموا ... إلى الحديدِ، وخوضوا الموتَ والهلعا

والشاعر: «رجا سمرين» يصور الظروف التى أحاطت بضياع فلسطين، تلك الظروف التى أوجدها الظلم، وتحكمت فيها الأهواء الشريرة، فافترس فيها القوى الضعيف، فسيطر قانون الغاب، وتهاوت قوانين السماء، حتى القوانين الوضعية التى تستهدف تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات ديست وأهملت وضرب بها عرض الحائط، وأصبحت الرغبة فى السيطرة وحب المال والجرى وراء النهب والسلب هى دستور الدول القوية التى لا تخجل من الادعاء بأنها تدافع عن الحق والعدالة والسلام! فهو يقول من قصيدة بعنوان: «إلى ولدى نزار»:(39)

ولدى؟ .. أتيتَ وملءُ عالمنا مظالمُ لا تُعَدُّ
تتحكّم الأهواءُ فى أبنائه ويسودُ حقدُ
وتقودهم نحو الدمارِ مطامعُ ليست تُحَدُّ
دستورُهم سلبٌ وإرهابٌ، وتقتيلٌ وقيدُ
يطغى القوىُّ على الضعيف، ويدّعى الإخلاصَ وغدُ
ويظلُّ يصرخُ بالعدالةِ، وهو وحشٌ مستبدُّ

ويعلن الشاعر: «سميح القاسم» أن جميع الأقنعة - التى كان الاستعمار يتخفى وراءها - قد سقطت بعد عدوان يونيو 1967، الذى كشف صراحة عن تواطؤ الدول

(39) د. رجا سمرين - الديوان - ص 185، ط الكويت.

لقاءهم بفارغ الصبر، ولابد أن يستجيب الأبناء لهذه العاطفة الصادقة النبيلة، فيبكون هذه الأماكن ويتمنون العودة إليها، لكن بكاءهم - فيما بعد الصدمة - لم يكن بكاء الضعف أو الاستجداء، وإنما كان بكاء الشوق واللهفة، والإصرار على العودة مهما عظمت التضحيات، وكان دور الشعر فعالاً فى الحث على رفض الواقع والاستعداد لتقديم كل غال ورخيص فى سبيل تحرير الوطن والعودة إلى الديار، على الرغم من أن الإمكانات المتاحة كانت ومازالت لدى شعبنا محدودة، لكن المهم هو الإرادة الصلبة والإيمان القوى بالله والتمسك بالحق والموت فى سبيل المحافظة عليه والدفاع عنه.

والشاعر «معين بسيسو» فى «المدينة المحاصرة» يقول:[15]

البحرُ يحكى للنجومِ حكايةَ الوطنِ السجينْ
والليلُ كالشحاذِ يطرقُ بالدموعِ وبالأنينْ
أبوابَ غزةَ وهى مغلقةٌ على الشعبِ الحزينْ
فيحرّكُ الأحياءَ ناموا فوقَ أنقاضِ السنينْ
وكأنهم قبرٌ تدقُ عليه أيدى النابشينْ

* * *

ويخاطبُ الفجرُ المدينة وهى حيرى لا تجيبْ
قدّامها البحرُ الأجاجُ وملؤها الرملُ الجديبْ
وعلى جوانبها تدبّ خطى العدوّ المستريبْ
ماذا يقولُ الفجرُ : هل فُتحتْ إلى الوطنِ الدروبْ ؟
فنودّع الصحراءَ حين نعود للوادى الخصيبْ

* * *

(15) معين بسيسو - ديوان المعركة.

تفنى الزعـامـاتُ وأشـبـاهُـهـا والخـالدان : الشـعبُ والموطنُ

والشاعر : «رجا سمرين» يعود إلى وطنه بعد غيبة طويلة، كان دائم الحنين خلالها إلى السهول والجبال، تتوق نفسه إلى الظلّ الظليل فيه، وكان يتمنى أن يلقاه حراً قد حطم قيوده، وتخلّص من غاصبيه، وعاد إليه أبناؤه الذين شردتهم يد البغى والعدوان؛ فنثرتهم تحت كل كوكب، وهاموا على وجوههم فى كل درب، لا تسترهم من قيظ الحر أو زمهرير الشتاء إلا خيام ممزقة بالية، بعد أن عاشوا - فى أرضهم وديارهم - حياة سعيدة وارفة الظلال، فتبدلت أحوالهم، وعانوا من شظف العيش، وقسوة العدو وغدر الأقربين ما جعل الحياة لهم جحيماً لا يطاق، فماذا يقول:[29]

وطنى الحـبـيبُ لقـد رجـعتُ إليك بعـد نوىً طويلْ
فلكم ذكـرتك فى الشـروقِ وفى الغـروبِ وفى الأصـيلْ
ولكم حننتُ إلى الجـبـال، ولكم صـبـوتُ إلى السـهـولْ
كم حنّ روحى للشـــذى المعطارِ للظلِّ الظليلْ

* * *

كم كنت يا وطنى أودُّ بأن أعـــــودَ إلى رُباكْ
فـأراك مـوفـورَ الكرامـةِ قـد نُصـرتَ على عِداكْ
لكننى قـــد عُـدتُ والأعـــداءُ تنعمُ فى ثراكْ

* * *

وبنوك قـد هامـوا حـيـارى فى المفـاوز للهـلاكْ
قـــد عـــدتُ يا وطنى إليك وأنت منكوءُ الكلومْ
نضـوا كـئـيـبـاً بائسـاً يعلو مـحـيّـاك الوجـومْ
بضـرواةٍ قـد مـزّقـتك مـخـالبُ البـغي الغـشـومْ

(29) د. رجا سمرين - الديوان - ص 158.

لما تأبَّ من أتى يحمى ذمارَك والخصومْ

* * *

قد صرت يا وطنى ملاذاً للشريدِ وللطريدْ
وبنوك فى جوفِ الخيامِ بلا شعورٍ كالعبيدْ
ركنوا لظلمِ الغاشمين وقد رضوا ذلَّ القيودْ
وجنانك الفيحاءُ قد أمستْ مراحاً لليهودْ

* * *

وطنى الجريح لقد رجعتُ إليك يحدونى الأملْ
فرأيتُ فيك مآسياً تدمى لمرآها المقلْ
وبنو العروبةِ خانعون وليس يعروهم خجلْ
لا يغضبون لما أصاب رُباك من خطبٍ جللْ

هذه نماذج من الشعر الفلسطينى المعاصر الذى استلهم المأساة فأوحت إليه بصور دامية للواقع الأليم الذى رفضته؛ من تشريد شعب عن أرض آبائه وأجداده، وتفرقه - مرغماً - فى شتى أنحاء المعمورة.

ولذلك فإن هذه النماذج الشعرية التى قدمناها لم تلبس ثوب الخيال، ولم تعد الحقيقة الأليمة التى نلمسها، وليس معنى هذا أنها صورة جامدة للواقع، وإنما مزجت بأحاسيس ومشاعر الشعراء الذين هزتهم المأساة فتفاعلوا مع تأثيرها وعبروا عنها، كل حسب قدرته وموهبته، ومدى تأثره وانفعاله.

وقد رأينا ما فى هذه التجارب الشعرية من حزن وأسى، وما تنبض به من شوق عارم وحنين جارف إلى الوطن، وما فيها من نعي على كثير من الساسة العرب الذين قصروا فى حق أمتهم، وقد برهنت هذه النماذج على أن الشعر يظلّ من أهم الطرق فى التعبير عن خلجات النفوس، وتصوير آمالها وتطلعاتها إلى مستقبل أفضل.

والأحباب والديار، وهذا الشعر فى كل مجالاته السابقة كان يعبّر عن عواطف جياشة صادقة ولّدتها ظروف معروفة محددة.

ولقد لاحظنا أن هذا النتاج الشعرى لونته عواطف جياشة، ومشاعر قوية أسهمت فى خلق تجارب شعورية عميقة أسعفها الخيال المتوثب فى تصوير ما ألم بهذه النفوس من آلام وأحزان وآمال، لكن ذلك لا يمنع من وجود تفاوت فى الأداء والتعبير بين شاعر وآخر، وذلك تبعاً لقدرة كل واحد منهم على الخلق والإبداع والتصوير، وبمعنى آخر لقد تفاوت الانفعال فى تلك القصائد حسب تفاوت شاعرية الشعراء وتباين قوة العاطفة، وعمق التجربة والثقافة، كما أن تفاوت الظروف الاجتماعية والنفسية لدى هؤلاء الشعراء قد كان له أثره فى نفس كل واحد منهم، ومدى قدرته على الخلق والإبداع، وهذه أمور لا يمكن إنكارها أو تجاهلها.

2 - الأوزان والقوافى:

إن الأشعار التى عرضناها قد جاءت فى قوالب ثلاثة:

الأول : اتحد فيها الوزن والقافية والتزم ذلك فى القصيدة كلها تأسياً بنظام القصيدة فى الشعر العربى التقليدى، وتمسكاً بعمود الشعر العربى المعروف، وقد سار على ذلك الشعراء الاتباعيون، وبعض الشعراء الإبداعيين فى قسم من أشعارهم ومن هؤلاء الشعراء:

أبو سلمى «عبد الكريم الكرمى»، ومحمد العدنانى، ومحيى الدين الحاج عيسى، ومحمد أبو غربية، وعلى هاشم رشيد فى معظم أشعاره.

الثانى : اتحد الوزن وتنوعت القافية؛ لأن الشاعر قسّم القصيدة الواحدة إلى

عدة مقطوعات انفردت كل مقطوعة بقافية معينة مغايرة للمقطوعات السابقة أو اللاحقة، ولكن وزن البحر بقى موحّداً فى القصيدة كلها، ومن الشعراء الذين سلكوا هذا الطريق: «معين بسيسو»، ومحمود الحوت، وهارون هاشم رشيد، ورجاء سمرين.

الثالث : الشعر الحر «شعر التفعيلة» ولقد فرض الشعر الحر نفسه واحتل مكانة مرموقة بفضل شعراء الأرض المحتلة الذين تميزت أشعارهم بصدق التجربة، وقوة العاطفة، وحرية التعبير، ومن هؤلاء: محمود درويش، وفدوى طوقان، وسميح القاسم، وتوفيق زياد.

والشعر الحر - كما هو معروف - لا يلتزم عمود الشعر العربى المعروف ولا يعتمد على وزن البحور الشعرية المعروفة، ولا يعنى بالقافية الموحدة وإنما كل اعتماده - فى موسيقاه - على الموسيقى المنبعثة من التفعيلة مع العناية باختيار الألفاظ الموحية ووضعها فى نسق متساوق يكسبها إيقاعاً «موسيقى داخلية» يغنيها عن الموسيقى الخارجية المعتمدة على الوزن والقافية، كما يعنى الشعر الحر باصطياد الصور المبتكرة والعمل الجاد على إيجاد الترابط اللازم فيما بينها.

ومن الذين عالجوا الشعر الحر وعُنوا به - عدا شعراء الأرض المحتلة - «معين بسيسو»، وعز الدين المناصرة، وأحمد دحبور، وحسن النجمى، وفدوى طوقان، ويوسف الخطيب.

وقد لجأ بعض هؤلاء إلى استخدام الرمز - خاصة الأسطورى منه - فى شعره، وسبق لنا أن عرضنا بعض النماذج التى كان الرمز فيها خالياً من الغموض والإبهام.

ونلاحظ أن الأوزان الشعرية - التى كان لها نصيب الأسد فى شعر الغربة والحنين - هى الأوزان الطويلة مثل الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، التى تستوعب

ما تثيره الغربة، وما يستدعيه الشوق والحنين من الإصرار على العودة، وطلب الثأر، وعرض ما يقاسيه أبناء الوطن من محن وآلام، وتتسع هذه البحور لانسياب العاطفة وتدفقها فيما تعبر عنه من اشتياق إلى الوطن والأهل، ورثاء للشهداء، وتمجيد للبذل والفداء.

3 - زخرفة الأساليب:

لجأ العديد من الشعراء إلى زخرفة أساليبهم بالكثير من فنون البديع المعروفة مثل الطباق والمقابلة والجناس، وحسن التقسيم. فمن الطباق قول الشاعر: «محمود الحوت»:

ما السلمُ ؟ ما الأمن ؟ والأعداء في وطني ؟ أنا **طريدٌ** وهم **سكان** جنته لا كان

غرب ولا **شرق** ونحن على كفّ الردى، وهو يلهو بعض لعبته فالغرب والشرق طباق (المعنى متعاكس في الكلمتين) وفي طريد، سكان طباق. ومنه قول «على هاشم رشيد»:

إذ ذاك؛ يا وطني ستلقى **ليلنا** **صبحاً** وترضى زحفنا المقبولا

فما بين الليل والصبح طباق - لما بين الكلمتين من تضاد في المعنى، والمعلوم أن ذكر الشئ مع ضده يوضحه ويجلوه، ويثبته في الذهن لأنه يثير اهتمام المتلقي، ويحفزه على التأمل، ويساعده على الاستيعاب وقد قيل: «وبضدها تتميز الأشياء»:

ومن **المقابلة** قول الشاعر «على هاشم رشيد» في القصيدة نفسها:

ويعودُ رهطُ العائدين مظفراً **ويعودُ رهطُ المعتدين فلولا**

إذ إن عودة العائدين مقرونة بالنصر والظفر، بينما يخرج المعتدون مشتتين مهزومين، وما ذلك على الله بعزيز!.

ومنها قول الشاعر : «رجا سمرين» :

أراكم رضيتمْ بعيش الكفافْ وأنتم صنعتم نعيم الحياة
أراكم تنامون فوق الترابْ وأنتم أقمتم قصورَ السراةْ

فالتركيب: «عيش الكفاف» يقابل التركيب: «نعيم الحياة» ويضاده والتركيب: «فوق التراب» يقابل التركيب: «قصور السراة» ويضاده ومن حسن التقسيم قول الشاعر : «حسن النجمى»:

شفتاهُ سؤالٌ مضطربٌ عيناه سهوبٌ ترقبنى

وقول الشاعر : «هارون هاشم رشيد»:

هناك ، هناك ، أغانى صباىْ ونجوى شبابى وذكرى هواىْ
وحقلى ، وما زرعته يداىْ وعوداً تركتُ حزيناً ، وناىْ

وقول الشاعر : «معين بسيسو»:

هنا حطامٌ، هنا موتٌ، هنا غرقٌ هنا بقايا رغيفٍ عالقٍ بيدِ

ومن الجناس التام قول الشاعرة : «فدوى طوقان»:

وإلفُ الحياة يشيعُ الحياةَ بأجواءِ جنّتها الحانيةْ

ومن الجناس الناقص قول الشاعر : «أبى سلمى»:

سيروا على وضحِ النهارِ فالحقُّ من نورٍ ونارْ

ومنه قول : «توفيق زياد»:

وأحفرُ : «قد وصلنا قمةَ المأساةِ»:

الفصل الثالث

مكانة هذا الشعر ومنزلته في الشعر العربي الحديث

لقد عاش الإنسان العربى فى فلسطين - تحت نير الاحتلال البريطانى - أكثر من ثلاثين عاماً، وهو يناضل هذا المستعمر الباغى فى قوة ورباطة جأش أذهلت العالم أجمع واستحوذت على إعجابه وتقديره، وقد عمد هذا الشعب مسيرته بالدماء والتضحيات وتساقط الشهداء بعشرات الألوف دون أن تلين قناته، أو تفتر عزيمته.

ولم يكن الشعر ليغيب عن هذه المواجهة، وإنما كان فى صميمها، وواكب مسيرة هذا الجهاد خطوة خطوة؛ يؤبن الشهداء، ويثير الهمم، ويدعو إلى اليقظة ومحاربة الخونة والسماسرة وأعداء الوطن، ولم يكتف الشعر بالكلمة، وإنما حمل السلاح وانخرط فى صفوف المقاتلين والمجاهدين، وسقط منهم العديد من الشهداء على تراب الوطن الطاهر، ومن أبرز الشعراء الشهداء: عبد الرحيم محمود، وإبراهيم الدباغ، وكمال ناصر.

ولما استطاعت قوى البغى والعدوان اغتصاب فلسطين - فى غيبة وحدة العرب وقوتهم - هُجّر وشُرّد معظم أبناء الشعب الفلسطينى إلى - منفاهم - فى الدول العربية المجاورة، وكان لهذه المأساة وقع جدّ أليم فى نفوس العرب والمسلمين فى كل مكان، وتجرّع أبناء فلسطين كئوس الهوان والمذلة مترعة، فجاشت فى نفوسهم عوامل السخط والغضب والألم مجتمعة، وقام الشعر ليترجم هذه العواطف والمشاعر ويصوغها شعراً متمرداً على كل المؤامرات التى تحاك ضد هذا الشعب خاصة والأمة العربية عامة

وكانت أبرز هذه المؤامرات - عقب تشريد الشعب الفلسطيني - مؤامرة البحث له عن وطن بديل في إحدى الدول العربية المجاورة أو في عدة دول منها من أجل إنهاء قضيته وتصفيتها لحساب قيام دولة دخيلة على تراب وطنهم السليب.

وبما أن الشاعر - الملتزم - هو صوت أمته - يعبّر عن ضميرها ووجدانها - فقد استطاع أن يبرز قضيته في فلسطين ويحدد أبعادها، ويوضح ويكشف حقيقة المأساة التي نزلت بهذا الشعب، وأخذ على عاتقه أن ينير الطريق أمام الأجيال لتسير على هدى وبينة من أمرها، بعد أن كانت الشعوب العربية - في معظمها - أسيرة التخلف والغفلة، ولم يكن في إمكانها أن تستوعب ما يدور حولها، بله أن تواجهه أو تتصدى له، ولم يكن العدو قوياً بقدر ما كنا ضعفاء، كما لم يكن ذكياً بقدر ما كنا غافلين أغبياء، ومن هنا استطاعت الصهيونية - متحالفة مع قوى الاستعمار - أن تحقق هدفها «الأولى» في فلسطين، وهي تسعى جاهدة الآن لتحقيق هدفها المنشود: «إقامة إسرائيل الكبرى» فهل تستفيق أمة العرب من غفلتها؟

1 - شعراء المنفى:

برز العديد من الشعراء - خارج الأرض المحتلة - الذين عرفناهم عن طريق الصحف والمجلات والإذاعات، ثم عرفناهم بعد أن نشروا دواوينهم الشعرية، ومن أبرز هؤلاء: عبد الكريم الكرمي - أبو سلمى - ، وكمال ناصر، ومحمود الحوت، وهارون هاشم رشيد، وعلى هاشم رشيد، ومعين بسيسو، ورجا سمرين و«برهان الدين العبوشي» و«محمد العدناني» و«محمود نديم الأفغاني» وغيرهم.

وإذا استحضرنا أسماء الدواوين التي صدرت عقب المأساة وجدناها تجسد النكبة التي حلّت بأبناء الشعب الفلسطيني، فهي:

«المشرّد»، «مع الغرباء»، «عودة الغرباء»، «عائدون» «الضائعون»، «صوت الجياع»، «المعركة»، «المهزلة العربية»، «شبح الأندلس»، وهكذا.

وقد أثبت الشعر الفلسطينى أنه يستوعب الواقع الذى تعيشه أمته ويدرك أبعاده، غير أنه يسعى - جاهداً - لتغيير هذا الواقع التعس؛ فقد رأيناه يتبنى قضايا الوحدة العربية، وبناء الجيوش العربية والاقتصاد العربى على أسس سليمة، كما عمل على إثارة الوعى القومى العربى حاثاً العرب على استعادة مجدهم القديم مهما كلّف ذلك من تضحيات، يقول «هارون هاشم رشيد» عن الشعر: «ومع كل تحركات التحدى فى الوطن الواسع وقف، وإلى جانب كل الثورات كان، وخلف كل التحركات إلى الأفضل تحرّك، رافعاً شعار المقاومة العنيدة، والشاعر صوت أمته وضميرها ووجدانها، ومن هنا انطلق الشعر الفلسطينى، تفجّر من أعماق هذا الوجدان ليكون على الطريق علامة بارزة تضع إشراق الغد لشعب أرادوا له الموت، فصنع - بجراحه - الحياة.

لقد عبّر هذا الإنسان - الشاعر الفلسطينى - فى منفاه، وهو يحمل ترس المقاومة - يتلقى به الضربات القاصمة - أصدق تعبير عن دور هذا الإنسان فى المنفى؛ فهدر بنداء الصمود، وتحدى الخيام والكهوف، والبؤس والموت والجوع - تحدى كل هذا بالصمود، وزرع الأمل، ودعا إلى النهوض فى عزة وأنفة، وأخذ مكانه على درب النضال من أجل العودة».[1]

ولقد سار مع الشعراء الفلسطينيين - على هذا الدرب - كثيرون من شعراء الأقطار العربية الذين هزتهم المأساة، وشعروا بخطورة الواقع الذى أصبحت تعيشه أمتهم، فنعوا على الملوك والزعماء تخاذلهم وضعفهم، وحذروا من كيد الاستعمار ومخططاته، وحثوا أمتهم على الأخذ بأسباب العلم والتطور، ودعوا إلى التمسك بالقيم

---

(1) الشعر المقاتل فى الأرض المحتلة - ص 27/26.

2 ـ الصياغة والتعبير عند الشعراء الفلسطينيين:

يتفق الشعراء الفلسطينيون ـ فى طرائق الصياغة والتعبير ـ مع شعراء المهجر فى بعض الجوانب، ويختلفون معهم فى جوانب أخرى؛ فكلا الجانبين استخدم البحور الطويلة ـ الطويل والبسيط والكامل والوافر ـ وسبق لنا أن عرضنا أمثلة لها من شعر المهجر، وقد جاء ـ الآن ـ دور الشعر الفلسطينى.

يقول «هارون هاشم رشيد» فى الحنين إلى مدينة «حيفا» من البحر الكامل:

حيفا الحبيبةُ ! هل لأمسكِ رجعةٌ ... وهل الشبابُ يعودُ وهو شبابُ
أين المجالسُ منك يجمعُ شملَها ... حلوُ الحديثِ، ومرقمٌ وكتابُ
حيفا عروس خواطرى ومشاعرى ... ما لى عليكِ من الزمانِ عِتابُ

ويقول «محمود الحوت» فى الشوق والحنين إلى مدينة «يافا» من البسيط :

يافا ! لقد جفَّ دمعى فانتحبتُ دماً ... متى أراكِ ؟ وهل فى العمرِ من أمدِ؟
كيف الشقيقاتُ ؟ واشوقى لها مدناً! ... كأنها قطعٌ من جنةِ الخلدِ
وكيف من تبقّى فى مرابعها ... وقد تركناه فيها تركَ مُلتحدِ ؟

ومن بحر الوافر يقول «أبو سلمى» فى الحنين إلى فلسطين:

فلسطينُ الحبيبةُ ! كيف أحيا ... بعيداً عن سهولك والهضابِ ؟
تنادينى السفوحُ مخضّباتٍ ... وفى الآفاقِ آثارُ الخضابِ
تنادينى الشواطئُ باكياتٍ ... وفى سمعِ الزمانِ صدى انتحابى

ومن بحر الطويل، يقول «محمد العدنانى»:

ألفنا إذا اجتاحَ اليهودُ حدودَنا ... ليوثَ شرىً أن لا ننامَ على الألمْ
ونرسلَ برقياتنا ووفودَنا ... لتجأرَ بالشكوى إلى هيئة الأممْ
إلى هيئةٍ لولا صفاقةُ وجهها ... لكان اليهودُ - اليومَ - لحماً على وضمْ

وقد استخدم كل من الشعراء الفلسطينيين والشعراء المهجريين البحور القصيرة والمجزوءة نظراً إلى طواعيتها ومرونتها، وقدرتها على تصوير أخيلتهم، واحتواء أفكارهم وأدائها بشكل أفضل. وقد مثلنا بنماذج من الشعر المهجرى ، وجاء - الآن - دور الشعر الفلسطينى الذى استخدم هذه البحور أيضاً، فمن مجزوء الكامل يقول الشاعر : «رجا سرمين» فى قصيدته : «إلى ولدى نزار»:

ولدى أتيتَ وملءُ عالمنا مظالمُ لا تعدُّ
تتحكّمُ الأهواءُ فى أبنائه ويسودُ حقدُ
وتقودهم نحوَ الدمارِ مطامعٌ ليست تحدُّ

ومن مجزوء الوافر يقول «فتحى قاسم» فى الحنين إلى الوطن:

نحنُّ إليك يا وطنى
وللأطيارِ والزيتونِ والدمنِ
نحنّ لبيتنا العالى
وكرمِ التينِ والعنبِ
لأحبابٍ لنا كانوا
رفاقَ الأنسِ والطربِ
أخى - باللهِ - أخبرنى
أمازلتم كما كنتمْ ؟
أم الأيامُ سامتكمْ ؟

والتوابع، وما يجرى فى هذا السبيل مثل المقامات».[13]

1 - الصورة فى الشعر المهجرى:

إن الحنين فى الشعر المهجرى قد ارتبط - إلى حد بعيد - بالهرب من الواقع، ومحاولة الجرى وراء عالم مثالى يسوده الوئام، ويخلو من التصارع والأحقاد، فلم يجدوا أفضل من الطبيعة يهربون إليها متمثلة فى الغاب الذى لم تصل إليه يد الإنسان ويتساوى فيه الجميع، وقد دفعهم ذلك إلى أن يحنّوا إلى الطفولة البريئة المرتبطة بالوطن الذى قضوا أوقات طفولتهم على أرضه، وبين أهله، غير أن الغربة التى نتجت عن هجرتهم من أوطانهم قد زرعت الحزن واللوعة فى النفوس التى تاقت إلى الهرب من مجتمعها الجديد محتمية بالغاب الذى مازال بكراً - على الفطرة - فى وجدانهم ، لاسيما وأن هذا الغاب - بفطرته - أقرب إلى الحياة الساذجة التى عاشوها فى أوطانهم قبل مجيئهم إلى هذه الحياة الجديدة المادية الصاخبة، وقد أوحى إليهم هذا الهرب شعوراً بجمال دنيا الطفولة، وهى العهد الجميل الذى قضاه الشاعر فى وطنه قبل أن يرتحل عنه، وشعوراً أعمق يصور الوطن نفسه عالماً بعيداً يمتلئ بالسعادة والرضى والنور.

يقول بعض الباحثين: «إن الشاعر الرومانطيقى قد ينمى فى نفسه الشعور بالحاجة إلى الغاب والطفولة تنمية خيالية، أما المهجريون، فلم يكونوا بحاجة إلى تغذية مشاعرهم بروافد من الخيال؛ لأنهم يجدون مادتهم من واقع حياتهم».[14]

وقد كان حنينهم إلى الغاب، ولم يكن إلى الصحراء مثلاً، لأن طبيعة الوطن الذى نزحوا عنه تتكون من الغابات كما هى الحال فى لبنان مثلاً، وقد تأثر بالغاب وجدّ فى

---

(13) د. محمد نائل - اتجاهات وآراء فى النقد الحديث - ص 89.

(14) د. إحسان عباس ، د. محمد يوسف نجم - الشعر العربى فى المهجر - ص 118.

البحث عنه شعراء المهجر الشمالى خاصة، أما شعراء المهجر الجنوبى، فقد كان اتجاههم بعيداً عن الرومانسية المفرطة الحالمة التى طبعت شعر الشماليين بطابعها من أمثال: جبران خليل جبران، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، وميخائيل نعيمة.

أما الاتجاه الرمزى - فى أشعار المهجرين - فكان محدوداً، ويرجع ذلك إلى حريتهم فى التعبير البين عما فى خاطرهم وبين جوانحهم لأن الإنسان العربى - بطبيعته - يؤثر الوضوح، وينأى عن الغموض: متأثراً فى ذلك بجذوره الطبيعية والاجتماعية، وليس فى وسعه الإفلات أو التحرر من هذه المؤثرات تماماً، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود اتجاهات رمزية إلى جانب الاتجاه الرومانسى فى شعرهم، بل إن بعض الباحثين يرى أن «الاسترجاع الحلمى» قد لعب دوراً كبيراً فى تصوير المهجرين حنينهم وأشواقهم إلى الوطن، ويرى أنهم فى ذلك قد ساروا فى ثلاثة خطوط هى:

1 - التعبير الصريح المباشر عن حب الوطن، وهو يتفاوت لديهم بمقدار البساطة فى التعبير، والصدق فيه، والقوة فى الحنين نفسه.

2 - التعبير عن الحنين فى صورة حلم، وهذا متفاوت أيضاً بالنسبة لمقدار الاقتراح بين الوطن والطفولة، ومدى التخيّل الحلمى.

3 - التعبير غير المباشر عن الحنين، وذلك بتصوير حالة نفسية قلقة فى موضعها ظامئة إلى الغاب أو المجهول أو الطفولة، أو تصوير نفسية حزينة عاجزة عن أن تتبين روافد حزنها، فهى ضارية فى سديم غائم من العواطف المبهمة، والتعبير عنها تلميحى إيحائى لا يحدد شوقاً واضحاً إلى الوطن المادى»[15]

وينبغى أن نشير إلى أن هذا الحنين قد ارتبط بالكآبة والألم، ومحاولة الهرب من

(15) المصدر السابق نفسه - ص 128.

واقع الحياة - خاصة شعر المهجر الشمالى - جرياً وراء الغاب أو خيمة الناطور، ونتج عن ذلك «فلسفة» مثالية سلبية، وقد غالى البعض منهم فى محاولة الهرب، فجرّه ذلك إلى الخمر أو الانطواء على نفسه.

إلا أننا نرى أن المدرسة المهجرية كان لها فضل عظيم على الشعر العربى المعاصر؛ إذ لقحته بالأخيلة المبتكرة، والصور الجديدة؛ نتيجة اتصالها بالأدب الغربى وتأثرها به إلى حد بعيد، وقد استطاع شعراؤها المبرزون أن يجمعوا بين الخيال المجنّح والعاطفة المشبوبة والفكر المستنير، ومن ثمّ فقد أعطت هذه المدرسة للأدب حقه، وأعلت منزلته ومكانته؛ حين جعلته تعبيراً عن خلجات النفس، وتصويراً للمشاعر والعواطف التى يجيش بها وجدان الشاعر وقلبه، بعد أن كان - فى الكثير الغالب - يمثل دور البهلوان، أو النديم فى أحسن الأحوال، لكنه - فى كل الظروف - لم يكن يملك مشاعره، ولا حراً فى التعبير عنها، ولكنه يقول أو يكتب - فى الغالب - ما يطلب منه أو يراد له.

«فإذا كان التصوير فى الأدب عامة دعامة كبرى من دعاماته تسبغ عليه أفانين من الرقة واللطف والجمال، وتترك فى النفس أعمق الآثار، فهو فى الأدب المهجرى - خاصة - إحدى مزاياه الجميلة التى برع فيها، وقدّم منها ألواناً عجاباً فى مختلف صور الحياة، ونوازع النفس البشرية والفكر الإنسانى»[16]

ومن صور الشعر المهجرى البارعة فى الحنين قول الشاعر: «شفيق المعلوف»

طال بىِ الشـــوقُ ولجّ الظمـــا ... إلى ليـــالٍ فى أعـــالىِ الكرومْ
يغـرى بهـا البـدرُ صـبـايا الحـمى ... كـأنما البـدرُ خـلالَ الغـيـومْ
جـمّعَ أنوارَ جـمـيع النجـومْ ... وصبّـهـا من كـوّةٍ فى السـمـا

(16) د. عيسى الناعورى - أدب المهجر - ص 128.